قدسية الماء وطقوسه في الثقافة الحسانية

السالك حبادي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة القاضي عياض – مراكش
المملكة المغربية

الملخص:

سنركز في هذا المقال على دراسة التمثلات الاجتماعية و بعض الطقوس لمائية في الثقافة الشعبية الصحراوية لما لها من أهمية كبيرة في فهم العلاقة الفريدة التي تربط الإنسان ببيئته القاسية والمقيدة، حيث يمثل الماء في الصحراء أكثر من مجرد مورد طبيعي، بل هو رمز للحياة والكرم والأمل، إذ يشكل جزءًا من البنية الثقافية والاجتماعية والدينية التي تعكس الهوية الصحراوية.

Résumé

Dans cet article, nous nous concentrerons sur l'étude des représentations sociales et de certains rituels liés à l'eau dans la culture populaire du désert, compte tenu de leur importance capitale pour comprendre la relation unique qui unit les humains à leur environnement hostile et restrictif. L'eau dans le désert représente plus qu'une simple ressource naturelle ; c'est un symbole de vie, de générosité et d'espoir, car elle fait partie intégrante de la structure culturelle, sociale et religieuse qui reflète l'identité désertique.

مقدمة

يعتبر الماء من الموارد الطبيعية التي تحكمت في مصير سكان الصحراء، حيث شكل أبعادا عديدة لأسباب مختلفة أساسها الارتباط العضوي بينه وبين الإنسان، إلا أن هذا المورد رغم أهميته في الحياة لم ينل ما يستحقه من اهتمام من قبل المهتمين بالمجال، فجل المصادر التي أشارت إلى المنطقة في إطار دراسة عامة لا تمدنا بمقاربة انثروبولوجية حول العلاقة التي ربطت الإنسان بالماء، وما ورد اتخذ طابعا عاما لا يسمح بالقيام بدراسة سوسيولوجية تحليلية لكل المعطيات المتعلقة بقدسية الماء وطقوسه، وتقنيات استغلاله وتوزيعه، فمن خلال الادب الجغرافي (الشعر –ثقافة) للمجال والمحكيات الشفوية عن سكان تتضح مدى قدسية الماء وتمثلاته في المخيال الصحراوي، والعلاقة التي ربطت الماء والانسان حتى صار مضرب مثل في التعامل مع الندرة، مما انعكس بشدة على ذهنيته، وتتجلى أهمية الماء في الثقافة الصحراوية ومكانته في نفوس السكان إلى يومنا هدا في وجود مجموعة من السلوكات التي لا زال البدو يتشبثون بها ومنها وجود أشخاص يقومون بفتح "المطفيات" يوم الجمعة وأيام الأعياد للتبرع بالماء العذب ومن الممارسات المحمودة كذلك انتشار ظاهرة افتراض الماء العذب بين الناس وهدا السلوك النبيل موروث ومتداول بين جميع السكان المحليين حتى الآن .

–فماهي أهمية الماء وقدسية ماء المطر؟

–وماهي طقوس الاستمطار المائية في الثقافة الحسانية؟

أ–رمزية الماء وقدسيته

إن التراث الثقافي الصحراوي زاخر بالطقوس وبالممارسات التقليدية، فقد ارتبط الماء بكثير من عادات البدو الرحل، حيث الطقوس والشعائر الدينية التي ترتكز على الماء زمنها النقاء والطهارة والتجدد الروحي، ومن أهمها صلاة الاستسقاء التي يقيمها المسلمون طلبا للغيث ونزول المطر عند انقطاعه، وهي من الطقوس التي تقام عند السكان و إن كانت تختلف شيأ ما عما جاء في الشريعة الإسلامية إلا أنها بعد الانتهاء منها يتبعها أدعية وأشعار خاصة بالتوسل إلى الخالق مثل[1] :

يا ملا نة فرج بالسحاب كيفت تفراجك بالشدة

وعطي مطر بلا حساب و بلة مدفع وبلا رعد

ارتبطت أغلب الطقوس المائية في الثقافة الحسانية بتقديس ماء المطر خاصة الذي يسمى محليا "بالسحاب"، فتجد من عادات البدو أثناء نزول المطر عدم التحدث فيما بينهم حتى يكتمل نزول المطر في اعتقادهم أن الحديث أثناء نزول المطر يرجعه، وعند سماع صوت الرعد يبدون بالتهليل والتسبيح للخالق، وعند روية البرق يحرم عندهم أن تشير لمكان رؤيته في السماء بإشارة الأصبع، إلا بطرقة خاصة عندهم وهي الإشارة بجمع أصابع اليد .

للماء الأثر البالغ في التأثير على الثقافة الصحراوية، فكانت له عدة تجليات في الرغبة في الحصول عليه من خلال الرويات والخرفات (غولة الماء) والطقوس فهو مقترن بكل معاني الخير، وكل منظر حسن وفعل جميل، وهو ما تعكسه الطقوس التي عمل سكان المجال خلقها وستعطاف السماء بها في أقات الندرة والتي تداخل فيها ما له اصل في العقيدة كصلاة الاستسقاء، وما هو نتاج ثقافة الندرة كـ طقس تغنجا والمعروف وغيرهم من الطقوس المنتشرة بالمجالات المشابهة، كما تجسدت قيمته من خلا ل ربطه بالقدسي وبكرامات الاولياء والاستشفاء وفي سياق رمزي نجده حاضر و بقوة في الشعر والامثال والحكم، فولدت ندرته جملة من القيم والأخلاق والنظم الاجتماعية والعادات والأعراف المتعارف عليها، فقد جعلت الانسان يتعامل مع الماء بطريقة الترشيد والتدبير عوض الإفراط في استعماله، بل يصل الماء في الثقافة الحسانية لمرتبة التقديس، وهذا يتجلى لنا من خلال تنوع ثقافة مصادر الماء كما أشرت .

[1]. الرواية الشفوية عن والدتي الزريكة منت عبد الله مزدادة سنة 1955.

ب– قدسية ماء المطر

حتل ماء المطر عند لإنسان الصحراوي مرتبة القدسية أنثروبولوجيا فله دلالات وتمثلات جلية في المخيال الثقافي، ويتجلى ذلك من خلال التعامل معه تعامل خاص مقارنة بالمياه الأخرى، فقد ظلت مياه الإمطار عند السكان تحتل المرتبة الأولى في الاستعمالات اليومية من شرب واعداد للشاي وحتى التداوي به من الامراض دون المياه الأخرى، وظل ميزان العرض و الطلب عليها يخضع للظروف المناخية، فإذا تعذر الحصول عليها بفعل توالي سنوات الجفاف يلجا السكان إلى استعمال المياه الجوفية المالحة التي كانت تعالج بطريقة تقليدية تعتمد على تسخين الماء بعد إضافة عظم (مواد تمتص الملح) اليه، ثم تترك المياه إلى حين تبرد وتستعمل للشرب ولطهي الطعام2، وكانت مياه القربة توزع وفقا لأهمية مجال الاستعمالات داخل الخيمة، وتخصص أكبر كمية للشرب والطبخ وتعتبر الطريقة القديمة المستعملة في معالجة وتصفية المياه الجوفية من الملح من أهم الأساليب التي استعان بها سكان الصحراء في تدبير مياه الشرب، ولا تزال هذه الطريقة تستعمل في العديد من المناطق حتى يومنا هذا3.

نظرا لأهمية مياه المطر(الغدير) في حياة السكان وتأثرهم بها من جيل الى جيل، خضع ثمنه باستمرار إلى ميزان العرض و الطلب4، ودفعت الندرة في بعض الحالات إلى الاتجار بها والى المقايضة، حيت يستبدل الماء بمواد أخرى كالسكر والزيت ويدل هدا النوع من التوزيع على أن المستعمل للماء في القديم كان ينهج خطة ناجعة تعتمد على الاقتصاد في استعمال الماء لا تزال مطبقة حتى الآن في بعض خيام السكان المحليين دوي الأصل الصحراوي والنمط الرعوي وحسب شيوخ المنطقة كان الفقير وعابر السبيل ينال ماء الشرب بدون مقابل وكان السكان يقطعون مسافات طويلة لشراء مياه المطر وهناك من يتحدث عن أصحاب القربة أو الرواية وهم تجار الماء الدين كانوا يسافرون إلى المناطق الممتدة شمال أراضي واد درعة لجلب الماء الصالح للشرب أو ما ينعت محليا "بماء الكربة" عكس الماء الأجاج الذي كان يقدم للماشية و المعروف محليا بماء الحية .

وعن أهمية المطر في نفسية الإنسان الصحراوي يقول خوليو كربروخا "وإذا كان السحاب (المطر) يعطي ماء الشرب ، فإنه يعطي أيضا العشب الضروري لتربية الماشية ، فليس هناك خبر مفرح أكثر من ذلك الذي يبشر بسقوط المطر في منطقة معروفة يمكن الذهاب اليها وإن كلف ذلك مجهودا جبارا .وحتى قبل أن تظهر نتائج أمطار الخير على العشب فإن عائلات كثيرة تصل الى المكان المعلوم وهي تكاد تعلم طبيعة العشب الذي سينمو بها ، وذلك حسب الفصول السنوية ونوعية التربة5"

ج– طقوس الاستمطار

خيمة المعروف

تعد خيمة المعروف من الطقوس المائية للمنطقة المدروسة التي لازال تمارس إلى الآن عند انحباس نزول المطر، إذ تشيد خيمة كبير تشارك فيها كل خيمة من "لفريك" وخاصة الأغنياء منهم، ويتم النحر أو الذبح عندها، حيث تقسم الذبائح على المحتاجين، عندما ، فيقوم الرجال بعد صلاة الظهر بترديد الدعاء ولله وطلب الاستسقاء ، تقوم النساء بترديد عبارة شهيرة "الصدكة الصدكة يرفع عنا البلاء والوباء الخارج من الارض والنازل من السماء"

[2] – مبسوط زينب ، **الماء والإنسان في الصحراء المغربية الأطلنطية**، م، س، ص101.

[3] نفسه، ص، 100.

[4] نفسه، ص،102.

[5] .خوليو كربروخا، **دراسات صحراوية**، م، س، ص :219.

طقس تغنجة[6]:

يعتبر طقس "تغنجة" من الطقوس الشائعة و المنتشرة في المناطق الجافة من المغرب، وتعني عروس المطر الذي فهو من أقدم الشعائر الاستسقائية، ويهدف إلى استمطار السماء حين تكون الأرض والمحاصيل مهددة بالجفاف والتلف وشح الماء.

يدخل طقس تغنجة عند أهل المنطقة ضمن التراث اللامادي ويعد من العادات المعرفة لدى المجتمع البيضاني فهو من الطقوس النسائية، إذ تقوم به نساء من "لفريك" والأطفال الصغار تيمنا ببرائتهم، فهو عند سكان الصحراء قديما ولا تختلف كثيرا عن ما هو معروف عند سكان المناطق الشمالية المجاورة، إلا أن هناك اختلاف من حيث الطريقة التي تقام بها بين السكان.

فعند سكان الصحراء تقام بطريقة خاصة، لا تختلف عن مجال درعة فهي بمجال الساقية و وادي الذهب عبارة عن عودان[7] وليست يسميان "بالصوصية[8]" تجمع هذه الأعواد وتحزم وتثبت على شكل صليب مع بعضها بشكل متعامد ، ثم تزين باللباس و أحسن الحلي النسائية (أخراص، خرز، ظفرات الشعر..) ، و تقام في أغنى خيمة "بالفريك " يكون مشهود لها في الوسط الاجتماعي بالثراء المتوارث ، يحملها النساء بعد تزينها وجعلها كالعروسة[9]، من خيمة الأخر داخل المخيم وذلك تدريجيا من الخيمة الغنية ثم التي تتبعها في الترتيب الاجتماعي إلى أخر خيمة في المخيم وهي الضعيفة من حيث الترتيب الاجتماعي، بعد ما تبدأ الانطلاقة من الخيمة الأولى ترافق تغنجة مجموعة من النساء الكبريات في المخيم ومعهم بعض الشباب ، ويقومون بجولة حول المخيم يحملون معهم تغنجة، و يحملون معها نوع من القدح معروف باسم "أسلاي"[10] لجمع التبرعات وكل خيمة تضع حسب استطاعتها من المعونة (سكر شاي، زرع ، دقيق، شعير ، لحم ..) ، وبعد جمع هذه التبرعات تقسم على الأطفال والفقراء، كل هذا وسط أهازيج روحانية من قبيل[11] :

تغنجة غطات راسها ياربي بلل أخراصها

تغنجة يا للة يا ربي جيب أسحاب بلا قلة

طقس "الطبگ":

يعتبر من طقوس الاستمطار التي كانت تمارس عند بعض السكان بالمنطقة وهو خاص بالأطفال الصغار الذكور فقط، لما يحملون من دلالات تتعلق بالبراءة والطهارة، لذلك لم اختيار الأطفال لهذا الطقس اعتباطا في طقوس البدو ، فيُعتقد أن الله يُستجيب لبكائهم بسبب براءتهم، تأثرا بالقول الشائع بأن "الله لا يسقي عباده إلا رحمة بالأطفال وبالبكماء، الحيوان والنبات" وهذا يعكس رؤية عميقة تربط بين البراءة والطهارة من جهة، ورحمة الله من جهة أخرى.

حيث تقوم امرأة كبيرة السن من داخل المخيم بجلب رضيع من عند امرأة حديثة الولادة، وتقوم بتكبيل يدي ورجلي الرضيع داخل صحن معرف باسم "الطبك" المصنوع من السمار ، ويوضع الطفل وسط "الطبك" خارج الخيمة ويترك عاريا حتى يتبول في ذلك الطبق، وهذا شريطة أن يكون المولود من يوم ولدته أمه لم ينزل المطر بعد ولادته ، ومن الشروط أيضا أن يكون في السماء المزن أو الأنواء وهو علامة من علامات نزول المطر (السحاب) وليس من المؤكد نزولها يوضع الرضيع في الطبق للترجي ، وبعد هذه العملية تفك قيود الطفل ويتم تمليكه شاة

---

6 من الطقوس المعروفة في شمال إفريقيا بمختلف أنحائها ومناطقها سواء الناطقة بالأمازيغية أو بالعربية العامية الطقس المعروف ب تاغنجا أو "تيسليت أونزار".

7 أغلب المناطق بالمغرب يستعملون مغرفة .

8. الصوصية: تصنع من الخشب وهي من المستلزمات الضروري قي صناعة الغزيل الصوفي للخيمة التي تصنع من شعر الماعز.

9. الرواية الشفوية عن خديجتوا منت عبد الله.

10 أسلاي قدح كبير لحلب النوق ويستخدم للماء.

11. الرواية الشفوية،عن خديجتوا منت عبد الله. 2021

أو غيرها ، كل هذا وسط الأنظار تجلب أمه لتراه بعينها يبكي وسط الطبق ، لكي تتأثر بمشهده وتدعو الله أن يفكه وينزل المطر، ففي اعتقادهم أن دعوة الأم في هذه الحالة لأبنها مستجابة عند الله.

تزوة الأربعاء:

تسمى"تزوة لربعا" ، و "التزوة" هي قدح أو أنية مصنوعة من الخشب ، تجمع فيها حليب النوق بعد حلبها ، وتستعمل للماء واللبن وتسع 30 لترا ، تؤخذ من عند أكبر خيم بالفريك وأكثرها ثراء ، وهذا الطقس خاص بالكبار في السن إما رجال وإن لم يكون ، تقوم به بدلهم النساء الكبيرات في السن من أهل المخيم أو(لفريك)، بقوم الرجال بحملها وسط المخيم وخاصة يوم الأربعاء ويرددون أهازيج من قبيل تزوة لربعاء يا لمباركين توضع التزوة وسط ما يعرف بالمراح الإبل أ مباركها أي مكان التي تعقل فيه الإبل ليلا ، بعد ذلك يقوم الناس بوضع تبرعات فيها كل حسب استطاعته ، وفي الأخير تقسم التبرعات المحصل عليها داخل التزوة كل يوم أربعاء ، حيث تكلف امرأة كبيرة السن من داخل المخيم توزيع الحصيلة كل صباح أربعاء على الأطفال وتردد أهازيج مثل "تقراوين يا لمعايل" أي (الاطفال) ما معناه المناداة على الأطفال ويتم تقسيم قطع السكر أو الحلوى عليهم.

الملاحظ أن هذه الطقوس المائية مرتبطة بطبقة اجتماعية من المجتمع الصحراوي وهي الطبقة الغنية من المجتمع، وخاصة التي يكون فيها الثراء متوارث من جد إلى جد وذلك في اعتقاد المجتمع أن السلالة الغنية أي المتوارثة للثراء تكون ميمونة ومباركة ولها كرامات، ويسمونها "بالمسرورة" ويتبركون بها، بل إنها تحظى بشيء من التقديس من قبل الطبقة الفقيرة.

عموما هذه أهم الطقوس المائية عند أهل الصحراء التي كانت تقام خاصة إذا لم ينزل المطر، فحسب الذاكرة الصحراوية الشعبية هناك من الطقوس المائية التي لم تعد تقام في الآونة الأخيرة ومنها طقس اللوح والتي لا تزودنا الذاكرة الشعبية بكثير من المعلومات عنه إلا أنه من الطقوس الإستسقائية الغير شائعة عند الصحراوين كثيرا ، لكن لازال موجود ويقام عند القبائل في موريتانيا، حيث يوضع لوح من الخشب مكتوب عليه آيات من القرآن الكريم على شجرة و يوجه الجانب الذي كتبت عليه الآيات القرآنية إلى السماء و يقوم الرجال بالدعاء إلى الله بغسل الآيات و محوها من اللوح بقطرات ماء المطر، وإذا نزل المطر ومسح ما كتب على اللوح كاملا، ففي اعتقادهم أن السحاب تكون مباركة على الأرض منبتتا لها .

خاتمة

بصفة عامة احتل الماء مكانة مهمة في العلاقات الاجتماعية الصحراوية بالرغم من عدم بروز هده الأهمية في الموروث الثقافي المحلي بالشكل المطلوب وتميز التعامل مع الماء في القديم بوجود وعي بيئي اتسم بالاقتصاد في استعماله، وحسن تدبير ما توفر منه كما أن ندرة هذا المورد لم تكن حاجزا أمام ربط العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين السكان، بل بالعكس خلقت عند هؤلاء ثقافة خاصة للتعامل مع الندرة وحتمت عليهم حسن التدبير، إلى درجة تسمح بالقول بأن هؤلاء الرحل ظلوا يحافظون على التوازن بين الطبيعة الصحراوية القاحلة وظروف العيش، وهي الثقافة التي ستغير مع الأسف بسبب ما ستعرفه هده المنطقة من تحولات خلال الوجود الاسباني ومباشرة بعد استرجاعها.